الفصاحة بين اللفظ والمعنى

أ.عبد القادر سلامي

قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب
والعلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعةأبي بكر بلقايد – تلمسان

ملخص :

تهدف هذه الدراسة إلى إعمال الفكر فيما أصبح في مألوف الناس من أمر الفصاحة ، وذلك بسوق نماذج لغوية وتحليل أخرى في محاولة لعقد الآصرة بين فصاحة اللفظ وفصاحة المعنى ، وبما يكفل عرض آراء علمائنا القدامى ، وما احتجوا بـه من أدلة نقلية وعقلية تنتصر للفصاحة إنْ في اللفظ وإنْ في المعنى .

أصل الفصاحة في اللغة خلوص الشيء ممّا يشوبه . والفعل : فصُح اللّبَنُ وأفصَحَ:إذا تعرّى من الرّغوة ، فهو فصيح . وأفصح الرجل : انطلق لسانه بكلام صحيح واضح ، وفصُح : جادت لغته حتى لا يلحن . ويقال: أفصح العجميّ فصاحة : إذا تكلّم بالعربية . ويقال : أفصَح الصبح ، إذا ظهر ضوؤه . قالوا : وكل واضحُ مُفصِح (1) .قال يحي بن خالد (ت 129هـ) : " ما رأيت رجلاً قطّ إلاّ هبته حتى يتكلم ، فإن كان فصيحا عظُم في صدري ، وإن قصّر سقط من عيني " (2) .

وعلى هذا تناول الدارسون اللغويون الفصيح في مجالين ، أحدهما بالنسبة إلى اللفظ ، وثانيهما بالنسبة إلى المتكلّم به ، والأول أخصّ من الثاني ، لأنّ العربي الفصيح ، في رأيهم ، قد يتكلم بلفظة لا تعدّ فصيحة (3).

_فصاحة اللفظ أم فصاحة المعنى ؟

اختلف الناس في الفصاحة ، فمنهم من قال : إنّها راجعة إلى الألفاظ دون المعاني ، واحتجّ من خصّ الفصاحة بالألفاظ بقوله : نسمع الناس يقولون : هذا لفظ فصيح ، وهذه ألفاظ فصيحة ولا نسمع قائلا يقول : هذا معنى فصيح . وإن قلنا إنها تشمل اللفظ والمعنى لزم من ذلك المعنى بالفصيح وذلك غير مألوف في كلام الناس (4) .

والذي رآه عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) أن المزية من حيّز المعاني دون الألفاظ (5). وقد اختصت الفصاحة باللفظ وكانت من صنعته من حيث كانت عبارة عن كون اللفظ على وصف إذا كان عليه دلّ على المزية التي نحن في حديثها ، وإذا كانت لكون اللفظ دالاً استحال أن يوصف بها المعنى ، كما يستحيل أن يوصف المعنى بأنه دالّ مثلا فاعرفه .(6)

فعبد القاهر الجرجاني يجعل الفصاحة في اللفظ متعلقة بالنّظم ، فهو لا يعدّ اللفظ فصيحا في حدّ ذاته ، بل فصاحته تأتي من تلاؤم معناه مع معاني جاراته . ومن ثم فالفصيح هو اللفظ الحسن المألوف في الاستعمال ، والمتوافق معناه مع غيره في التركيب ، والفصاحة هي التكلم على السليقة التي فُطر العربي عليها منذ نشأته في بيئته العربية اللسان ، القوية البيان (7) ، وهو ما لخّصه شهاب الدين الأبشيهي (ت 850هـ) ، بقوله :" والذي أراه في ذلك أنّ الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف في الاستعمال بشرط أن يكون معناه منه صحيحا حسنا " (8).

وكـأنّ فخر الدين الرازي (ت606هـ) همّ بالردّ على عبد القاهر الجرْجاني ، حين قال:"اعلم أن الفصـاحة خلوص الكلام من التعقيد ... وأكثر البلغاء لا يكادون يفرّقون بين البلاغة والفصاحة ، بل يستعملونها استعمال الشيئين المترادفين على معنى واحد في تسوية الحكم بينهما ، ويزعم بعضهم أن البلاغة في المعاني والفصاحة في الألفاظ ، ويستدلّ بقولهم : معنى بليغ ولفظ فصيح " (9) . ولعـلّ فخـر الدين الرازي سار على هدي الجاحظ (ت255هـ) ، بقوله :" فمن زعم أن الـبلاغة أن يكـون السـامع يفهـم معنى القائل جعل الفصاحة واللكنة (*) ، والخطأ والصواب والإغـلاق (*) والإبانة ، والملحون والمعرب كله سواء ، وكله بيانا " (10) فالفصاحة عنده قد تلتـبس مع الخطأ ومقابلها اللحْن الذي يفهم منه اصطلاحا : الخروج عن أوضاع العرب وسننهم فـي كلامهـم ، أو مـا سمّاه الجاحظ بالعيّ (11). ومن هنا ندرك أننا أمام مستويين للفصاحة ، أولهما : السلامة اللغوية ، وثانيهما : السلامة البيانية ، أي اختيار الكلام الجيّد المؤثر في السامع، وهو ما يفهم من كلام أبي نصر الفارابي (ت351هـ) أيضا ، إذ يقول :"فتصير عباراته خارجة عن عبارة الأمّة ، ويكون خطأ ولحنا وغير فصيح" (12) .

عـلى أن جمهور العلماء يتفقون على أنّه " من المستحسن في الألفاظ تباعد مخارج حروفها ، فإذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكّنة في مواضعها ، غير قلقة ولا مكدودة (13)، والعيب في ذلك قول الشاعر : (14)

وقبرُ حربٍ بمكان قفر وليس قُرب قبر حرب قبْرُ

قيـل:إن هـذا البيت لا يمكن إنشاده ثلاث مرات متوالية ،إلا ويغلط المنشد فيه ؛لأن القرب في المخارج يحدث ثقلا في النطق (15).

وتجـدر الإشارة هنا إلى أن ابن جنّي(ت392هـ)وقف عند حسن تأليف الحروف وخلاصة رأيه أنّ الحـروف كـلّما تـباعدت فـي التأليف كانت أحسن،وإذا تقارب الحرفان في مخرجيهما قبُح اجـتماعهما ولاسيما حروف الحلق،لذا رأيناه يفرد لهذه المسألة فصلا في آخر كتابه "سر صناعة الإعراب".(16)

أمـا دارسـو الإعجـاز و البلاغة و النقد،فقد أفادوا من الدراسة الصوتية عند اللغويين،ووجهوا خطـاهم نحـو تـأليف حروف الكلمة بحسب المخارج الصوتية،وماله من دور في حسن التلقظ وفصـاحته أو سـوئه و عدم فصاحته.فقد عُرضت على الخليفة المتوكّل جارية شاعرة،فقال أبو العيـناء(ت283هـ) يستجيزها: أحمـد الله كـثيرا،فقالت:حيـث أنشأك ضريرا،فقال يا أمير المؤمنين:قد أحسنت في إساءتها فاشترها".(17)

وقـال ثعـلب(ت291هـ)في أول فصيحه :"هذا كتاب اختيار الفصيح ممّا يجري في كلام الناس وكتبهم،فمـنه مـا فيـه لغة واحدة،و الناس على خلافها،فأخبرنا بصواب ذلك،و منه ما فيه لغتان وثـلاث و أكـثر من ذلك،فاخترنا أفصحهنّ،ومنه ما فيه لغتان وكثرتا واستعملتا فلم تكن إحداهما أكـثر من الأخرى،فأخبرنا بـهما(18).فالمفهوم من كلامه أن مدار الفصاحة في الكلمة هو كثرة اسـتعمال العـرب لهـا.ويدعـم هـذا المفهوم ما جاء في طبقات النحويين و اللغويين:"قال ابن نوفـل:سـمعت أبـي يقـول لأبي عمرو بن العلاء(ت154هـ):أخبرني عمّا وصفت ممّا سميت عـربية،أيدخل فيه كلام العرب كله؟ فقال:لا.قلت:كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة؟ فقال: أحمل على الأكثر،واسمّي ما خالفني لغات(*).(19)

ورأى المـتأخرون من البلاغيّين أنّه لا يمكن لكلّ واحد الاطّلاع على ذلك لتقادم العهد بزمان العرب،فحـرّروا لذلك ضابطا يعرف به ما أكثرت العرب من استعماله من غيره، فقالوا:الفصاحة في المفرد:خلوصه من تنافر الحروف،و الغرابة،و من مخالفة القياس اللغوي.(20)

1-فبالتنافر تكون الكلمة متناهية في الثقل على اللسان،فيعسر النطق بها.من ذلك ما روي عن أعرابي أنّه سُئِل عن ناقته،فقال:تركتها ترعى"الهعخع"(يعني الكلأ).
و منه ما دون ذلك كلفظ:"مستشزرات"،في قول امرئ القيس يصف فرسه(21):
غدائرهُ(*) مُسْتَشْزِرات(*) إلى العلا تَضِلُّ العُقاصُ (*)في مُثَنّى(*)و مُرسل(*)
وذلك لتوسط الشين وهي مهموسة رخوة بين التاء وهي مهموسة شديدة والزاي وهي مجهورة.(22)
2-أمّا الغرابة فهي أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها إلا بعد البحث عنها في معاجم اللغة وكتب الغريب .فقد روي عن عيسى بن عمر(ت149هـ)،أنه سقط عن حمار،فاجتمع عليه الناس،فقال:"ما لكم تكأكأتم عليّ تكأكؤكم عل ذي جنة ، أفرنقعوا عنّي ." أي اجتمعتم ، وتنحّوا (23) وافترقوا .
وعلّق الشيخ بهاء الدّين السّبكي (ت777هـ) على هذا العنصر قائلا : " ينبغي أن يحمل قوله : (والغرابة) على الغرابة بالنسبة للعرب العرباء ، لا بالنسبة إلى استعمال الناس ، وإلا لكان جميع ما في كتب الغريب غير فصيح ، والقطع بخلافه (24) وبعد التمعن في قول السبكي يتبين أن الغرابة تعني الألفاظ الفصيحة التي عرفها العرب الخلص وأصبحت غريبة بالنسبة للرعيل الجديد لأسباب معينة منها : ندرة استعمالها أو لتناسيها ولا يجب أن تقاس الغرابة على استعمال الناس للغة ، وإلا لأصبح كل غريب غير فصيح. فالغرابة المقصودة إذن ، لا تمسّ الفصاحة بقدر ما تمس مدى تداول الألفاظ واستعمالها ، وهذا ما قصد إليه ثعلب قبل ذلك .
3_وفيما يخصّ مخالفة القياس ، نجد على سبيل المثال قول الشاعر : (25)
*الحمد لله العليّ الأجلّل *
فالقياس أن يقول الأجلّ بالإدغام (26) ويردّ الشيخ نفسه على القول ومخالفة القياس بقوله : ما خالف القياس وكثر استعماله ، فورد في القرآن الكريم ، فإنه فصيح ، سواء وافق القياس أم خالفه ، فكلامه عزّ اسمه أفصح وأبلغ من أيّ كلام بشريّ ، والقواعد القياسية من وضع البشر ، ولا يمكن أن تعلو يوما على كلام الله (27) ومقتضى ذلك أيضا أن كلّ ضرورة ارتكبها شاعر تخرج الكلمة عن الفصاحة ، وأقبح الضرورات الزيادة المؤدية إلى ما يقلّ في الكلام كقوله : فاطأتُ شيمالي " ، أي شمالي ، والعدول عن صيغة إلى أخرى كقوله :
"جَدْلاء (*) مُحْكَمَةٍ مِنْ نَسْجِ سَلاّم " *
أي سليمان ، وإذا قرأنا هذا البيت بمفرده فلا بأس فيه وتأخذ على الشخص هو سلاّم(28) لكن لنتصور أنّ البيت في قصيدة يذكر فيها مرّة سلاّم ، ومرة "سليمان" ، فإننا نقع في خلط ونجد أنفسنا مضطرين إلى الرجوع إلى مناسبة القصيدة أو ديوان الشاعر أو عصره لرفع الإبهام ، وهنا يظهر بوضوح أن هذه الزيادة أو هذا النقصان لم يكونا في محلهما .
أما إن كانت الزيادة خفية ، فلا تغيّر الشيء الكثير ، نحو ما في : شيمالي .
4_وعدّ الشيخ السبكي من شروط الفصاحة ، ألا تكون الكلمة مبتذلة ، إمّا لتغيير العامة لها إلى غير أصل الوضع ، كالصّرم للقطع (29) ، فكان الأصل فيه الهجران ، وكأنّ الهجران يخلق قطعا بين شيئين أو أكثر (30). وإمّا لسخافتها في أصل الوضع ، فعدل في التنزيل إلى قوله تعالى :﴿ فأوقد لي يا هامان على الطّين ﴾ (31) بدل لفظ الطّوب (الآجرّ) (32) ومعنى الآية : اصنع لي الآجرّ (33) ، ذلك أن الطين بعد طبخه في قوالب خاصة يصبح طوبا أو آجرًّا ؛ لذا جاء في قوله : ﴿ فأوقد ﴾ سابقة لكلمة

﴿الطيـــن ﴾ ، أي اشعل النار ليطبخ الطّين ، ونستخلص من الشرح أن الطّين بعد الطبخ يصبح آجرًا أو طوبا ، ولذا ذكر الأصل الذي هو الطّين القابل للتجديد واستغنى عن الفرع وهو الآجرّ أو الطوب ،غير القابل للتجديد ،وهذا الأمر لا يستدعي سخافة تذكر.

وأورد السيوطي تقسيمًا للابتذال والغرابة عند حازم القرطاجنّي (ت684هـ)،وأنه ذكر أن الكلمة توجد على الأقسام ،بأن تكون(34) :

1_الكـــلام الـــذي استعمله العرب القدماء دون المحدثين (*) ، وكان استعماله كثيرا في الأشعار وغيرها ، فهذا حسنٌ فصيح .

2_مـــا استعمله العرب القدماء وخاصّة المحدثين دون عامّتهم ، ولم يكثر على ألسنة العامّة فلا بأس به .

3_مـــا استعمله العرب ، لكنه كثر على ألسنة العامّة ، وكان معناه اسما استغنت به الخاصة عن هذا ، فيقبح استعماله لا ابتذاله .

4_مـــا ورد كثيرا عند الخاصة والعامّة دون أن يكون له اسم آخر ، والعامّة ليست في حاجة إلى ذكـــر من الخاصّة ، ولم يكن من الأشياء التي تناسب أهل المهن ، فهذا لا يقبح ولا يعدّ مبتذلاً ، مثل لفظتي : الرأس والعين .

5_ما قد يذكر إلاّ أن الحاجة إليه عند العامّة أكثر ، كالصّنائع ، فهو مبتذل .

6_اللفظ الكثير الاستعمال عند العرب و المحدثين لمعنى ، وقد استعمله بعض العرب لمعنى آخر نادر ، فيجب أن يتجنّب هذا أيضا .

7_مـــا استعملته العامّة من غير تغيير ، فاستعمالها على ما نطقت به العرب ليس مبتذلا ، وعلى التغيير قبيح مبتذل .

ونشـــير أخيـــرا إلى أن السيوطي (ت 911هـ) نقل في مزهره عن أحد العلماء رتب الفصاحة بحســب الانتقال من حرف إلى حرف بعدا أو قربا ، وقد أحصى للكلمة المؤلفة من ثلاثة أحرف اثـــني عشـــر تركيـــبا ، وانتهى إلى أن أحسن هذه التراكيب وأكثرها استعمالا ما انحُدِرَ فيه من المخرج الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى ، يليها ما انتُقل فيه من الأوسط إلى الأدنى إلى الأعلى ، ثم من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوسط (35) .

وإذا كان اللغويون لم يهتموا بفصاحة المعاني اهتمامَهم بفصاحة الألفاظ التي رتّبوها بين دخيل (*) ومعرب(*) ومولّد (*) ومحدث أو عاميّ (*) ، فلعلّ مردّ ذلك إلى كون الألفاظ عندهم عـــوارض متناهية والمعاني جواهر غير متناهية (36) ؛ الأمر الذي لا ينفي أنّ من القدماء، على جـــلال قدرهم ، من لم تستجب له بعض معاني الألفاظ على فصاحتها ، طيِّعةً. فقد سأل أبو حاتم السجستاني (ت 255هـ) الأصـــــــمعي.

(ت 216هـــ) : لِمَ سمِّيَتْ مِنًى مِنًى ؟ فقال : لا أدري . فلقي أبا عبيدة (ت210هـ) ، فسأله ، فقال : لم أكن مع آدم ، عليه السلام ، حين علّمه الله تعالى الأسماء ، فأسأله عن اشتقاق الأسماء ، فأتى أبا زيد الأنصاري(ت215هـ) ، فقال أسمّيت مِنًى لما يُمنى (يُراق) فيها من الدماء .(37)

ويدعم ذلك ما جاء في طبقات أبي بكر الزّبيدي (ت379هـ) من أنّ أبا عمرو بن العلاء (ت154 هـــ) سُئِل عن اشتقاق الخيل ، فلم يعرف ، فمرّ أعرابيٌّ مُحرِمٌ ، فأراد السائل سؤال الأعرابيّ ، فقـــال له أبو عمرو : دَعْنِي ، فأنا ألطفُ بسؤاله وأعرفُ ، فسأله ، فقال الأعرابيُّ : اشتقاق الاسم من فعل المسمّى . فلم يعرف من حضر ما أراد الأعرابي فسألوا أبا عمرو عن ذلك ، فقال :

ذهب إلى الخُيَلاء التي في الخيل والعُجْبِ ، ألا تراها تمشي العِرَضْنَة (*) خُيَلاءَ وتَكَبُّرًا ؟ (38) ، ممـا يحمل على الاعتقاد بأنّ المعنى متقدّمٌ اللفظِ كونه قائمًا في واقع الحال وقبله ، هذا المعنى الـذي لا يخـرج وغيـرُه ، من حيّز القوّة إلى حيّز الفعل إلاّ إذا استدعي إلى الخروج في هيئة فصـيحة ليعدّ اللفظ رمزا لها ، ممّا حدا بعبد القاهر الجرجاني إلى اعتبار " إطلاق اللفظ من غير معرفة بالمعنى قد صار ذاك الدَّأب والدّيدن واستحكم الدّاء منه الاستحكام الشديد " . (39)

ولعـلّ مـا يبرّر هذا الحكم والإقرار به ، في رأينا ، هو عدول المنكرين عن إثبات الفصاحة في المعـاني وإثـباتها للألفاظ .غير أن عبد القاهر الجرجاني ، وإن ذهب مذهبا آخر يقود إلى إنكار مـبدأ الفصـاحة في الألفاظ دون المعاني من منطلق نظرية النّظم ، إلاّ أنه فاته ، وهو يورد بيتا شـعريا لامـرئ القيس (ت565م) ، وأربعة أبيات للبحتري (ت284هـ) على الترتيب ، مراعيا فيهـا مَزِيَـتَيْ الترتيب والتقديم والتأخير (40) ، أن يلحظ فيها ما قد يُخِلّ بالقياس المعنوي حملا عـلى مخالفة القياس اللغوي الذي يخرج اللفظ عن كونه فصيحا إلى لفظ غير فصيح ، على نحو ما مرّ بنا .

فقول امرئ القيس (41):

أيَقتُلُني والمَشْرَفيُّ (*) مُضاجِعي ومَسْنونةٌ زُرْقٌ كأنْيابِ أغْوَالِ؟ !

فيـه "تكذيـب مـنه لإنسان تهدّدهُ بالقتل ، وإنكارٌ أن يقدر على ذلك ويستطيعه . ومثله أن يطمع طـامع في أمر لا يكون مثله فيُجهّله في طمعه ، فتقول : أيرضى عنك فُلانٌ وأنت مقيمٌ على ما يكـره ؟ أتجد عنده ما تُحبُّ وقد فعلتَ وصنعتَ ؟ وعلى ذلك قوله تعالى ﴿ أنُلزِمُكُمُوها وأنتم لها كارهون﴾ (42) (43).

فشـبّه امرؤ القيس النّبالَ في جدّتها ومضائها بأسنان الأغوال ،وهو تشبيه وهمي ، ونحن نعلم أن القيـاس يستلزم وجود لغة حديثة مقيسة على لغة قديمة من باب موازنة كلمات بكلمات أو صيغ بصيغ أو استعمال باستعمال أو معنى بمعنى (44) ؛ وهذا القياس لا يتمّ إلاّ بطريقة منطقية كونه يسـاعدنا على صياغة ألفاظ جديدة واشتقاقات قد تكون شائعة في اللغة القديمة ، وقد تكون نادرة فيهـا أو قد تكون غير موجودة إطلاقا فما بالك والمعاني بعدُ ليست قائمة إلاّ على سبيل التوهّم ؟ وبهذا فإن القياس يعتمد في الدرجة الأولى على ذات اللغة ويستعين بقواعد النحويين والصرفيين .

ونمـثّل لذلـك بقولـه : " أغوال " ومفردها "غُول" ، وهي من "غَوَلَ" التي تدل على كل ما أخذ الإنسـان مـن حيث لا يدري فأهلكه (45) .وتزعم العرب أنّه نوع من الشياطين يأكل الناس أو دابّة رأتها العرب وعرفتها وقتلها تأبّط شرًّا (ت 80 ق.هـ) (46) ، وجمعه "أغوال" و"غيلان" (47) . فكيـف أمكن امرؤ القيس استعمال هذا المخلوق الوهمي والمتعدّد الاحتمال المعنوي في أصـل الوضـع ولو جاز له ذلك من حيث القياس والضرورة الشعرية ، فيجعل له أنيابا من باب الاسـتعارة قياسا على نظير يشترك معه في معنى عام ، وهـو الاغتيال ؟ فـالغول في عـرف الـعـرب تـطلق عـلى الصّداع والسّكر وبُعْدِ المفازة (*)والمشقة (48) . كما أن الغول تطلق أيضا على الهلكة و الداهية والسّعلاة (*) وعلى الحيّة ، وساحرة الجنّ والمنيّة ، ومن يتلوّن ألوانا مـن السّحرة والجنّ أو كل مازال به العقل(49). فهل التزم امرؤ القيس (الشاعر الجاهلي) بصحة قيـاس الفـروع عـلى فساد الأصول (50) ، أي صحة جواز القياس على أصول فاسدة أو على فرضـيات وهمية غير دقيقة ؟ أم أنه حمل قياسه المعنوي على ما أكّده القرآن الكريم بعد ذلك من صحة معتقدات العرب وايمانهم بها على سبيل التجريد لما وقع عليهم من أذاها عيانا ، فعبّر عنها بوجه من وجوه القياس مع الفارق ، فقال تعالى في إشارة إلى شجرة الزقوم التي تخرج في أصل الجحيم جزاءً للظالمين ﴿ طلعها كأنّه رؤوس الشياطين﴾ (51) .

أما قول البحتري (52) : (ت284هـ)

بَلَوْنَا ضرائِبَ مَنْ قد نَرى فما إنْ رَأينا لـفتح ضريبًا
هو المرءُ أبدت لـهُ الحَادثا تُ عزماً وشيكاً ورأيا صَليبا
تنقّلَ في خُلُقَيْ سـؤدَدٍ سماحا مُرجّىً وبـأسا مـَهيبًا
فكالسَّيف إن جئته صارخاً وكـالبحر إنْ جِئتَهُ مُستثيبًا

والأبيات من قصيدة له في مدح الفتح بن خاقان ومعاتبته .فإذا كان عبد القاهر الجرجاني قد راقته هذه الأبيات وأراد إشراك المُتَلقي في ما راقه فيها وما اهتزّت له نفسه فأراد منه تقصّي ذلك ، ليرى ضرورة أنّ ليس إلاّ أنّ البحتري قدّم وأخّر ، وعرّف ونكّر ، وحذف وأضمر ، وأعاد وكرّر ، وتوخّى على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها عِلمُ النّحو فأصاب في ذلك كلّه ثمّ لطفَ موضعُ صوابه وأتى مأتًى يوجب الفضيلة (53) ،فذهب عبد القاهر الجرجاني بذلك مذهبا يقود إلى إنكار الفصاحة في اللفظ دون أن يكون للتركيب دخل في ذلك ، غير أنه فاته أن يقف على أنّ قوله : "عزماً وشيكا" و"رأياً صليبا" فيه ما يخلّ بالقياس المعنوي . فـ"وشيك" في العزم استعمال غير واردٍ قبل البحتري إلاّ في معنى السّرعة والإسراع ، و "وشُكَ ": سَرُع ، و" أوشك" : أسْرَعَ ، وامرأة وشيكٌ : سريعة (54) .فالعزم يوصف بالشّدة عادة (55)، إلاّ أن يكون قد أراد من وراء ذلك أن العزم صار أخا له على سبيل المجاورة والالتصاق والقرب . كما أنّ الرأي لا يوصف بالصّلابة (56) بل بالسّداد ، وإن كان قد أورد "صليبا" بمعنى المصلوب ، وهو في وجه من القياس جائز ، ثُمّ سُمّي الشيء الذي يُصلب عليه صليبا على المجاورة (57) .وأصل الصليب من صلّب ، وهو العَلَمُ (58)

والرأي ما يراه الإنسان في الأمر ، وجمعه آراء (59) ، والسداد: " الاستقامة كأنه لا ثُلمة فيه ، والصواب أيضا سدادٌ ." (60)

ويبدو أنّ مخالفة القياس المعنوي في ما أوردناه واضحٌ بيّن ، ولا تشفع له سوى الضّرورة الشّعرية ولا يستقيم المعنى فيه إلاّ بلطف التّأويل والصّنعة ، على أن تحمل فصاحة لفظه على ما استعملته العرب ، وخاصّة المحدثين منهم ، باعتبار أنّ البحتري أحدهم ولم يكثر في ألسنة العامة ، فعدّ لا بأس به .(61)

فهل لنا بعد هذا الذي قدّمنا له بالدراسة والتحليل ، إلاّ أن نقول : إنّ الفصاحة لا تعدو أن تكون سلامة الكلام من التّعقيد اللفظي والمعنوي فتشمل بذلك اللفظ والمعنى ، ولزم بذلك تسمية المعنى بالفصيح . وما استبعاد الناس للقول بفصاحة المعنى واللفظ بعدُ فصيح ، إلا لكون " حكم المعاني خلاف الألفاظ ، لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية ، وأسماء المعاني مقصورة معدودة ، ومحصلّة محدودة " .(62)

على أن يحمل معنى البلاغة على " التماس حُسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلّة الخَرَق (*) من المعاني أو غمُض ، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذّر. وزيْنُ ذلك كلّه ، وبهاؤه وحلاوته وسناؤه أن تكون الشمائل موزونة ، والألفاظ معدّلة ، واللهجة نقيّة . فإن جامع ذلك السنُّ والسَّمت والجمال وطول الصمت ، فقد تم كلّ التمام ، وكمُل كلّ الكمال " (63) وهو كما ترى لا يتم إلاّ بفصاحة اللفظ والمعنى معا.

الهوامش:

(*) القرآن الكريم

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1979 ، 4/506-507 ، مادة (فصح) ، والسيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، شرح وتصحيح وعنونة وتعليق : محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1/184.

(2) الأبشيهي ، المستطرف من كل فن مستظرف ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، ص 67.

(3) السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، 1/184.

(4) الأبشيهي ، المستطرف من كل فن مستظرف ، ص 67 .

(5) عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الاعجاز ، تحقيق محمد رضوان الداية وفايز الداية ، ط 1403، 1هـ-1983م ، ص 51، ويوازن بما جاء في ابن خلدون ، المقدمة ،دار الجيل بيروت ، فصل (في أن صناعة النظم والنثر إنما في صناعة الألفاظ لا في المعاني) ص 639

(6) عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص 50.

(7) ينظر المصدر السابق ص 42-43.

(8) الأبشيهي ، المستطرف من كل فن مستظرف ص 67 .

(9) المصدر السابق ص 67-77 .

(*) اللكنة : عجمة في اللسان وعيٌّ . ينظر الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط2، دار الجيل ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1/73-74، 162

(*) الإغراق : كلام غلق أي مشكل ، ينظر المصدر السابق 1/254.

(10) المصدر السابق 1/262 .

(11) المصدر السابق 2/234 .

(12) أبو نصر الفرابي ، الحروف ، تحقيق محمد مهدي ، دار الشروق ، بيروت ، 1970، ص 145 .

(13) الأبشيهي ، المستطرف من كل فن مستظرف ص 67 .

(14) الجاحظ ، البيان والتبيين 1/65 ، وعبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ص 46 .

(15) الجاحظ ، البيان والتبيين 1/65 .

(16) ابن جني ، سر صناعة الإعراب ، تحقيق حسن هنداوي، ط1 ، دار القلم ، دمشق ، 1405 هـ-1985 م ، ص 811-820.

(17) الأبشيهي ، المستطرف من كل فن مستظرف ص 68 .

(18) ثعلب ، الفصيح ، تحقيق صبيح التميمي ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر ، 1979، ص 45

(*) اللغات : تعني اللهجات في عرف القدماء .

(19) الزبيدي ، أبو بكر محمد بن الحسن ، طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط1 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1954 م ، ص 35 .

(20) السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ،1/184.

(21) امرؤ القيس ، ديوانه ، دار صادر ، بيروت ص 44، و ينظر السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، 185/1.

(*) الغديرة : جمع غديرة ، وهي الخصلة من الشعر .

(*) الاستشزار : الارتفاع والرفع جميعا .

(*) العقيصة : الخصلة المجموعة من الشعر ، والجمع عقص وعقائص ، والفعل من الضلال والضلالة : ضلّ يَضِلّ .

(*) مُثْنىً : ما اعوجّ من الشعر وانعطف منه .

(*) مرسل : مسترسل ممتد .

(22) السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، 186/1.

(23) المصدر السابق 186/1 .

(24) المصدر السابق 187/1.

(25) ابن جني ، الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 3/ 87،93 ، وقد نسبه المحقق إلى الشاعر أبي النجم على أنه أول أرجوزته الطويلة ؛ وينظر السيوطي ، المزهر في علون اللغة وأنواعها ، 186/1 .

(26) السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، 186/1.

(27) المصدر السابق 188/1 .

(28) المصدر السابق 189/1 .

(29) المصدر السابق 189/1-190 .

(30) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ، 344/3، مادة (صرم).

(31) من الآية 38 من صورة القصص .

(32) السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، 190/1.

(33) ابن قتيبة ، تفسير غريب القرآن ، تحقيق أحمد صقر ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1389 هـ -1978م ، ص 333 .

(34) السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، 190/1-191.

(*) المحدثون : هم المتأخرون من العلماء والأدباء وهم خلاف المتقدمين، أما المحدثون من الشعراء فهم أصحاب الطبقة الرابعة والأخيرة في تصنيفات النحاة للشعراء إلى طبقات من حيث الاستشهاد بشعرهم أو عدمه ، ومن أعلام هذه الطبقة نذكر : بشار بن برد (ت 167هـ) وأبا نواس (ت199هـ) ، وأبا تمام (ت231هـ) والبحتري(ت284هـ) والمتنبي(ت354هـ). ينظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء، مطبعة بريل ، ليدن المحروسة ، 1902 م ، 228/1. وعبد القادر البغدادي ،خزانة الأدب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ،دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ،القاهرة ،1387هـ_1967م ،1/6-7،وينظر الجاحظ ، البيان والتبيين 1/49_50

(35) المصدر السابق 197/1.

(*) الدخيل :هو لفظ أعجمي استعمله العرب على وضعه العجمي في محاورتهم : محب الله بن عبد الشكور ، فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت في أصول الفقه ، دار العلوم الحديثة ، بيروت لبنان ،212/1.

(*) المعـرب : هـو مـا تفوهت به العرب من أسماء أعجمية على منهاجها أو هو ما استعملته العـرب مـن الألفـاظ الموضوعة لمعاني في غير لغتها ، السيوطي ، المزهر في علوم اللغة و أنواعها، 268/1.

(*) المولـد : هـو "مـا أحدثـه المولدون الذين لا يحتج بألفاظهم "، المصدر السابق ، 304/1 .ويريدون باللفظ المولد ما استعمله المولدون على غير استعمال الفصحاء من العرب : ينظر عبد الواحد وافي ، فقه اللغة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ص199.

(*) المحـدث أو العـامي : اقترن مصطلح المحدث بالمولد في عرف القدماء، جاء في الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر ، بيروت لبنان ، ودار الجيل بيروت ، 360/1 مـادة (الولد):" المولدة:المحدثة من كل شيء ، ومن الشعراء لحدوثهم" والمحدثون هم الذين عاشوا بعد المولدين إلى أيامنا هذه . ويسمى الكلام الذي عربه هؤلاء "المحدث "" تمييزا له مـن المولد ، ونسميه نحن اليوم "عاميا " : محمد الأنطاكي ، الوجيز في فقه اللغة ، ط3 ، مكتبة دار الشرق ، بيروت ، ص447.

(36) يـنظر السـيوطي ، المزهـر في علوم اللغة وأنواعها ، 369/1 ، وابن خلدون ، المقدمة (الفصل47) ص639، وابن جني ، الخصائص، /215-223 ، و الجاحظ ،البيان والتبيين، 75/1

(37) السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، 353/1.

(*) العرضنة : أي معترضة من وجه و مرة من آخر .

(38) الزبيدي ، أبو بكر محمد بن الحسن ، طبقات النحويين و اللغويين ، ص36، و السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، 353/1.

(39) عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ،ص254.

(40) ينظر المصدر السابق ص65،86.

(41) امرؤ القيس ، ديوانه ، ص 112 .

(*) المشرفي : أحد نعوت السيف ، و هو منسوب إلى المشارف ، وهي قرى من أرض العرب تدنـو من الريف ، أبو عبيد القاسم بن سلام ، كتاب السلاح (من الغريب المصنف) ، تحقيق حاتم صالح الضامن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1985م ، ص17.

(42) الآية 28 من سورة هود.

(43) عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص86.

(44)يـنظر ابـن جـني ، الخصائص ، 358/1، و السيوطي ، الاقتراح في علم أصول النحو ، تحقيـق أحمـد محمـد قاسـم ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ط1، 1976، ، ص96، وابن هشام الأنصـاري ، شـرح خمل الزجاجي ، دراسة وتحقيق علي محسن مال الله ، ط1، عالم الكتب ، بيروت ، 1405هـ -1985م ، ص355.

(45) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، 402/4 مادة (غول) .

(46) الفيـروز آبـادي ، القاموس المحيط ، المؤسسة فن الطباعة ، مصر ، 27/4 مادة (غاله) وينظر إبراهيم أنيس و عبد الحليم منتصر وعطية الصوالحي ، و محمد خلف الله أحمد ، المعجم الوسيط ، دار الفكر ، بيروت ، 667/2، مادة (غاله) .

(47) الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، 27/4مادة (غاله) .

(*) بعـد المفازة : ويسمى غَوْلا ، لأنه يغتال من مرّ به : ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة 4/ 402، قال رؤبة (ت145هـ) :

يمشي به الأدْمَانُ كالمُوَمَّه به تمطّتْ غولَ كُلّ ميلِه.
مجموعة أشعار العرب ، وهو مشتمل على ديوان رؤبة بن العجاج و على أبيات مفردات منسوبة إليه ، اعتنى بترتيبه و تصحيحه وليم بن الورد البُروسيّ ، ط2 ، منشورات دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، 1400هـ –1980م ص167 .

(48) الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، 27/4 مادة (غاله) .

(*) السِّعلاة : أنثى الغول ، وهي من أخبث الغيلان ، ينظر ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، 3/ 74، مادة (سعل).

(49) الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، 27/4 مادة (غاله) .

(50) وهو ما عالجه ابن جني ضمن(باب في المستحيل ، وصحة قياس الفروع على فساد الأصول) وأجازه ، فذهب إلى إمكان ذلك . فمن أمثلة معالجته الموضوع القياس بمنظوره الخاص قوله :"كأن يقول لك قائل : لو كانت الناقة من لفظ (القنو) ما كان يكون مثالها من الفعل فجوابه أن تقول : علَقة وذلك أن النون عينٌ والألف منقلبة عن واو ، والواو لام القنو ، والقاف فاؤه . ولو كان القنو مشتقا من لفظ الناقة لكان مثاله لفع .فهذان أصلان فاسدان ، والقياس عليهما أو بالفرعين إليهما ". الخصائص 327/3،339.

(51) الآية 65 من سورة الصافات .

(52) البحتري ، ديوانه ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف بمصر ، 1 /101 وينظر عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ص 65.

(53) عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص 65.

(54) الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، 334/3 مادة(وشك).

(55) المصدر السابق ، 151/4 مادة (عزم).

(56) أورد ابن جني ضمن (باب في الرد على من ادّعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني)، لفظ الصليب بمعنى الشديد ذي الصلابة في إشارة إلى نافذ الرأي بقوله:" وتعنو له مَيْعَة (نشاط) الماضي الصليب" : الخصائص 1 /219 .

(57) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، 302/3 مادة (صلب) .

(58) المصدر السابق ، 301/3 مادة (صلب) .

(59) المصدر السابق ، 472/2 مادة (رأي) .

(60) المصدر السابق ، 3/ 66 مادة (سد).

(61) السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، 1/ 190 .

(62) الجاحظ ، البيان والتبيين ، 76/1.

(*) الخرق : التحيّر والدّهش.

(63) المصدر السابق ، 88/1-89 .